توظيف الأساطير اليونانية في الشعر الفلسطيني

- شعر عز الدين المناصرة أنموذجا -

أ- وليد بوعديلة

جامعة سكيكدة

إن حضور الأسطورة في الشعر يؤكد خاصية انفتاح الإبداع على كل الروافد الثقافية المختلفة التي يمكن أن تمنحه التوهج والإشراق ، كما تساعد المبدع على جعل المعنى الشعري مراوغا ومتعددا وغير سطحي أو بسيط، رغم أننا إذا تأملنا الأسطورة نجدها تختلف عن الأدب من حيث الخصوصيات البنوية والوظائفية، لكن الأسطورة- النص انفتحت على غيرها من النصوص وتداخلت معها، ويكفي الاشتراك في البعد التعبيري اللغوي حتى يجد الباحث نفسه محاورا لأسئلة العلاقة بين الأسطورة والأدب.

إن الفضاء الأسطوري يحمل الطابع الأدبي،لأنها أسلوب لتفسير الحياة وشرح قضايا الوجود ، ولا نريد أن نتوقف عند الاختلافات المعرفية حول

مفهوم الأسطورة، وهي تتفق ففي اعتبار الأسطورة قصة مرتبطة بالآلهة ،أنتجها الإنسان ليقدم تفسيرات لعلاقته مع الظواهر الطبيعية، وهي القسم الناطق من الشعائر والطقوس البدائية التي تفسر بها المجتمعات ظواهر الكون.

وقد وظف الشعر العربي الأساطير، واختلفت تقنيات التوظيف بين الشعراء، كما اختلفت المصادر الأسطورية كذلك، وبرز السياب ، خليل حاوي ، أدونيس ، البياتي وصلاح عبد الصبور...و لو يتخلف الشعر الفلسطيني المعاصر عن ركب الاستفادة الجمالية والدلالية من الأسطورة ، وبرز اسم الشاعر عز الدين المناصرة، صاحب مجموعة من الدواوين الشعرية هي: - يا عنب الخليل1968-الخروج من البحر الميت (1969) -قمر جرش كان حزينا(1974) بالأخضر كفناه (1976) -جفرا1981-كنعانياذا1983-حيزية (1990) -رعويات كنعانية1991-لا أثق بطائر الوقواق (1999)، وقد جمع الشاعر أعماله الشعرية في طبعات مختلفة، آخرها عن دار مجدلاوي للنشر بعمان ، الأردن (2006).

ويبدو الاهتمام بالموروث الشعبي والأسطوري من عناوين الدواوين، ليشمل النصوص الشعرية، رغم أن المناصرة ابتعد عن الأساطير اليونانية، واستعان بالأساطير الشرقية،إلا أنه وظف بعض الأساطير اسما أو صفة، وهذا في سياقات شعرية مختلفة، ورغم هذا الحضور غير المكثف كميا، إلا أنه حضر في مشاهد شعرية متألقة، تقول مشاعر وأفكار الشاعر، وتكشف تفاعلاته مع قضايا وطنه وأمته.

1- إيكار:

قد تتجلى الأسطورة انطلاقا من عنوان القصيدة، كما هو شأن عنوان قصيدة " تشمع كبد إيكار"،حيث يوظف الشاعر أسطورة إيكاروس، وهي أسطورة تقول

بأن"ددال" أب "إيكار" صنع متاهة لأحد الملوك ولم يستطع الخروج منها، فصنع أجنحة وألصقها بالشمع وطار، وقد حذر ابنه من التحليق قرب الشمس، لكنه لم يسمع أمر والده واقترب،فذاب الشمع وسقط في الماء، ومن هذه الأسطورة ينطلق الشعر:

بيني وبين إيكار مسافات ضوئية

و مع هذا فنحن نلتقي

في نقطة واحدة من العالم

ليلا، دون أن يرانا أحد

رغم أن الليل في بيروت مثلا

ليس شرطا لستر الأسرار[1]

يعترف الشاعر بالبعد الزماني بينه وبين رمزه الأسطوري، كما يحيلنا في العمق، إلى الاختلافات الأسطورية والحضارية بين الحضارتين الشرقية واليونانية لكن لا ينفي الالتقاء، بل إنه يوجه القراء نحو العلاقة التفاعلية القوية جدا بين الشاعر وإيكار، لتتهدم المسافات الزمانية والحدود المكانية والقيود التاريخية الثقافية بينهما، وكأن الشاعر هو المناصرة/إيكار وليس المناصرة/الإنسان العادي، وهذا التصوير هو جوهر التوظيف الأسطوري الناضج وهو ما دافع عنه المناصرة نقدا، بحرصه على الالتحام بين الموروث والأساطير وبين القصيدة، مع عدم جعل الأساطير ملصقات في الجسد الشعري.

---

[1] عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط5، 2001، ص478

عبر ذلك الأفق ينتقل الشعر من السطحية والبساطة إلى العمق والغرابة، وهو ما أصاب القصيدة المعاصرة مع التحولات المختلفة، فانتقل الإبداع الأدبي" من علم جمال البلاغيات ولطائف المشاعر وطرائف الأوصاف والتعابير إلى علم جمال يعتبر الأدب عامة والشعر خاصة معرفة تقوم على رؤية الذات والموضوع رؤية كاشفة مسائلة، خارقة وبانية للتصورات، إنه انتقال من فن قوامه الضمير الفردي، مستقلا أو مندمجا بالأنا الجماعي إلى ضمير لا يلخص الجماعي ويجرده بل يحاوره ويخترقه ويخترق به، ويضئه ويستضئ به".[1] قصد قراءة واعية للحاضر و الماضي والمستقبل، فتكون العودة إلى الذاكرة عودة تأمل واكتشاف لا عودة غرق فيه وانبهار به.

وعندما تعود إلى تفاعل المناصرة مع الذاكرة الأسطورية اليونانية نجده يواصل لبناء نصه الشعري على النمط الأسطوري، نقرأ بقية حواره مع إيكار، وعناصر تشابههما:

هوغريب الأطوار

فعلته خطأ لا يتكرر كالديناميت

هكذا قال لنا المدرب

وهو قبل فعلته كان مصابا بتشمع الكبد

كان ذلك سرا للمقربين فقط[2]

يحيل الشاعر إلى بعض عناصر الأسطورة، من قبيل غرابة موقف إيكار وعدم أخذه بنصيحة والده عند الطيران في السماء، وهو موقف ستكون نتائجه

---

[1]-أسيمة درويش: مسار التحولات، قراءة في شعر أدونيس، دار الآداب، بيروت، 1992، ص 14.

[2]-عز الدين المناصرة : الأعمال الشعرية، ص 478.

خطيرة ووخيمة، ومن ثمة تتجلى لنا عواقب سوء التخطيط، وسيكون السقوط هو نتيجة الاقتراب من الشمس، ولا يكتفي الشاعر بتقديم الأسطورة فقط، وإنما هو يحدث فعلا شعريا أسطوريا، يلتقي فيه الحاضر الفلسطيني بالذاكرة اليونانية، ويشكل صورة بلاغية عن المناصرة/إيكار، نقرأ:

هو سيحترق بشمسه

و أنا سيذوبني المنفى

هو يتحد بعباءة العشب السماوي

و أنا أنحل في في تراب المنافي الصخرية

تلك مشيئة عدم التخطيط يا إيكاروس

هل تصدقني الآن أيها المرحوم

هل تصدق[1]

يقترب الشاعر من تحديات الوطن وجراحات الإنسان ،فإيكار احترق بالشمس والشاعر يحرقه المنفى، الأول يتناثر بين فضاءات السماء والثاني ينحل في أعماق أرض غير أرضه وتربة ليست بأرض أجداده، والسبب الذي يحرقهما واحد، إنه عدم التخطيط، لكن السبب عند الشاعر الفلسطيني لا يقتصر على ذات/وعي الإنسان الفرد فقط، وإنما يشمل الجماعة بأسرها.

وهنا يقدم الشاعر موقفه السياسي في ثوب شعري، يتأمل الراهن عبر عيون الأسطورة؛ ويحلل المشهد التاريخي المعاصر دون أن يقع في فخ المباشرة والتقرير، وهذا لا يتوفر إلا للممارسة الابداعية؛ فهي" تعبر عن نفسها بقدر من الوضوح والتبلور، وتمتلك من المرونة ما يسمح لها بتصحيح ذاتها، من التأمل

[1]- المصدر نفسه، ص478-479.

والتحليل ما يهيء لها تحديد الأهداف، ومن الشجاعة ما يجعلها تعلن عن نفسها وتدافع عن [1]، وتكشف الأخطاء وتصور النتائج، سواء أكانت انتصارا أو انهزاما، وهي عندما ترتبط بتربة الأرض الفلسطينية تتخذ مسارات ملحمية تطمح إلى فتح يوميات الصراع مع المحتل وعناق المشاعر والتصورات الخافقة بالشجاعة والبطولة، وقراءة المرجعيات الثقافية والممارسات الشعبية،لتجنب الاحتراق في الداخل أو الخارج، بالقرب من الوطن أو بعيدا عنه.

يتخذ الشعر بذلك التصور من أسطورة إيكار شعلة تنير الدرب المظلم، وتفضح التصورات الخاطئة، كي لا يتجدد الاحتراق بلهب الشمس، وكي يتجنب إيكار فلسطين سوء تخطيط إيكار اليونان، ويصبح الشعر احتفالا ثائرا صارخا، يرفض السقوط في مشاهد الحزن وأنغام المنفى وأشواك الغربة، ويؤسس لمشاهد الفرح وأنغام العودة وورود الوطن.

فبعدما تعمق الشاعر في الأسطورة اليونانية اختار التفاعل معها لأجل قراءة واعية للجرح الوطني، فيتحقق الاختلاف الفكري للأصل الأسطوري، لأن" انتقال الحدث من الداخل إلى الخارج هو ما يؤدي إلى تشظي دلالة الأسطورة وانزياحها عن معناها الأصلي إلى دلالات مختلفة، كما يؤسس هذا لطبيعة التفاعل القائم بين النصين الأسطوري والشعري"[2]

إن القصيدة تخفق بأسئلة الخلفية الأسطورية والراهن الفلسطيني، رغم المحاولة الشعرية لتجاوز ظاهر الأسطورة قصد الوصول إلى روحها، وهذا لا يتحقق إلا لشعر يحسن التوظيف الأسطوري، وشاعرنا استعان بتقنية التحويل

---

[1]- أسيمة درويش: مسار التحولات، قراءة في شعر أدونيس، ص 23

[2]- ليديا وعد الله: التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة، دار مجدلاوي للنشر، الأردن، 2005، ص 219

التي تستعين بأسطورة إيكار وتوظيفه اسما ودلالة، ونجد في العمق الشعري أن حضور أسطورة إيكار هو حضور لانفعلات ورغبات متصارعة تتناوب بين الرغبة في نشدان المستحيل ومحاولة التغلب على النقص وبلوغ الخلاص أو الخروج وقدر، بالتحليق كطائر في السماء بعيدا، حيث لا تحلق الآلهة الإغريقية، فكان المصير سقوط في العدم"[1] وهكذا يتداخل الراهني بالأسطوري، ويواصل المناصرة بحثه عن لحظة شعرية تتعانق رفيها المشاعر والتصورات الإنسانية والأسطورية،لكي تكون الأسطورة - بكل دلالاتها-ضوءا يوجه الإنسان في تحركاته وفي بحثه عن الخلاص والحرية، وتلك هي الرؤى التي قدمها إيكار للشاعر.

2- أندروميدا:

وقد وظف المناصرة أسطورة أندروميدا في قصيدته " صخور أندروميدا "، وهي امرأة قدمت كقربان لبوزيدون الذي كان يرعب الناس، فوضعها مشدودة إلى صخور الشاطئ، قبل أن يأتي " برسه "، ويحطم سلاسلها ويقتل الوحش الحارس ثم يتزوجها ، وهي ترمز للتضحية من أجل الغير- الوطن.

إذا عدنا إلى القصيدة نجدها تتضمن جملة من الموضوعات وهي على الترتيب:1- الأرض/ الذاكرة الشعبية 2- الصخر / الصيد 3- أندروميدا / الصخر 4- فك السلاسل 5- العودة / الأرض، ومن ثمة فهي قصيدة دائرية تنطلق من الأرض وتعود إليها، وبين البداية والنهاية يتأمل القارئ مشاهد أسطورية وحنينا إنسانيا،و شوقا إلى علامات الأرض والتاريخ.

يقول الشاعر متحدثا عن أندروميدا الجمال والأسطورة:

أندرومدا

---

[1]-المرجع نفسه، ص221

مربوطة بالسلاسل في الصخور السوداء
البحر ذليل عند قدميها
تتباهى بأجنحتها وضفائرها
أعطنا مما أعطاك البحر
تلومنا الشمس والبحر زعلان علينا
غمامة العطر تهبطين فوق الموجة[1]

يمزج المناصرة بين جمال هذه المرأة وقوة تأثيرها، فهي لا تسمو بجمال الشكل فقط ، وإنما بجلال المجد أيضا،فرغم أنها مقيدة بالسلاسل في أعالي صخور الشاطئ، إلا أن البحر يريد عناقها والصعود إليها في صورة شعرية راقية،يكون فيها هذا البحر ذليلا عند قدمي أندروميدا، بل إنها تسقي بعطرها الساحر أمواج البحر، فتتخذ – هكذا- مسارات العجائبي والمدهش، وكأن الجمال والجلال هما الذين يشكلان صورة كل من يتقدم قربانا من أجل أهله ووطنه.

ويتماهى النص الشعري في الأسطورة، وتتلاحق العناصر الأسطورية أمام القارئ:

يا جميلة الجميلات، يا ابنة الصخر والبحر والريح
لك الملك أيتها المربوطة بجذر الشجر
تتبجحين بعنفوانك
و أنت تذوقين المر
آتيك كصقر مخالبه تنبش الصخر
أفك سلاسل آلامك[2]

لهذه المرأة الأسطورية كل إيحاءات الدهشة، لأنها عانقت الصخر والبحر.

---

[1]- عز الدين المناصرة : الأعمال الشعرية ،ص 488

[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها

– واختارت أن تكون قربانا، لكي تعاني أو تموت، لكن قصد ضمان سعادة وحياة أهلها، وهي دلالة التضحية والتنازل عن سلطة الأنا، والشاعر لم يجد من رمز أسطوري يرتقي إلى أندروميدا تعبيرا عن التضحية، بخاصة عندما ينفتح الشعر على التضحية / المرأة، فنكون الدلالة هنا أكثر إشراقا إضاءة في النص ولدى المتلقي.

ولأن أندروميدا قامت بتشكيل صورة التضحية، يختار الشاعر / الإنسان الفلسطيني أن يغامر وينطلق في سفر بطولي،يطمح من خلاله إلى فك سلاسل الوجع والمعاناة من جسد/ روح هذه المرأة الجميلة، وفي ذلك إشارة شعرية إلى المرأة/الأرض، وهنا ينفلت من أحادية المعنى، ويتسع أفقه الجمالي – الدلالي، كما قد تتسع القراءة لتربط بين المرأة والهوية الفلسطينية،انطلاقا من أن"الأرض أضحت في شعر المقاومة رمزا للهوية الفلسطينية،كما أصبح الالتصاق بها وجها من وجوه النضال"[1]، وصورة من صور التحدي الحضاري الذي يأتي من عمق التاريخ والذاكرة ، لينفتح على جراحات الراهن وعذابات الإنسان والأرض في ظل الوجود الصهيوني.

– لقد عاد الشاعر إلى الأسطورة اليونانية وتأملها،فوجد فيها الكثير من التجليات التي تسعفه في مكاشفة عواطفه ومعانقة وطنه،فاختار توظيف أندروميدا، كما اختار أن يكون الفارس الأسطوري المنقذ، حتى لو اقتضى الأمر أن يقتل،و أن تكون قطرات الدم الفلسطيني هي القربان لأجل أن تعود أندروميدا إلى أهلها، فلا يكتفي الرمز الأسطوري هنا بحقيقته، وإنما يتحول ويتبدل، فتكون المرأة الأسطورية اليونانية هي المرأة الفلسطينية، وهي كذلك الأرض والهوية

[1]– محمد القاضي: الأرض في الشعر الفلسطيني، الدار العربية للكتاب ، ليبيا، تونس، 1982، ص88

وكل رمزيات الانتماء، ولا غرابة أن يربط الشعر الفلسطيني بين الأرض وبين الدم والنضال[1].

3-إخيل:

ويوظف المناصرة إخيل، وهو أحد أبطال اليونان، بل "كان مقدرا له أن يكون أعظم الأبطال الذين يقاتلون عند أسوار طروادة وأن يحقق الكثير من أمجاد الحروب، لكنه لا يعود حيا من هناك، بل يهلك برمية سهم وهو في أوج صولته وسطوته"[2]، وذلك رغم المحاولات الكثيرة لأمه لتجنيبه المشاركة في الحرب، إلى درجة غمسه في نهر مقدس

لكي لا تناله السيوف ولا تصبه الجروح، " فاكتسبت جميع أجزاء جسمه هذه المناعة ماعدا قدميه، فإن أمه كانت ممسكة به منهما إذ غمسته، فلم تبتلا بماء هذا النهر، وقد اشتهر إخيل بالشجاعة وقوة البأس وسرعة الغضب"...[3].

ولأن المناصرة يبحث عن علامات القوة والشجاعة في الذاكرة، فإن رمزية إخيل اليوناني تسعفه في هذا المقام، ولو أن توظيفه يبدو غامضا من خلال القراءة الأولى، بخاصة في ظل ضبابية المشهد الشعري، وعدو تقديم الشاعر لإشارات تعبيرية عن قصة هذا البطل الأسطوري:

قد يأتي بعد الصحراء الثلج المعسول
قد يأتي عسل الملكات الشقر
على كعب أخيل
صبح برمال سوداء يليه الثلج المسكون

---

[1]- للتوسع انظر المرجع نفسه، ص208 وما بعدها.

[2]- عماد حاتم : أساطير اليونان، دار الشرق العربي، بيروت، ،1994، ص404.

[3]- علي عبد الواحد وافي: الأدب اليوناني القديم، دار النهضة ،مصر ، 1979، ص22.

فاجأني فارتعش القلب المعطوب
أنتظر مسيحي المصلوب
أنتظر مسيحي المصلوب[1]

كلما انتقلت الأسطورة إلى عوالم الأسطورة الأدبية تحقق اختلافها وتغيرها، بل"يمكن اعتبار الانتقال من الأساطير البدائية- مادة الأديان والمعتقدات- إلى الأدب على أنه تطور يوضح الانتقال من القدسي إلى الدنيوي...فالأسطورة الأدبية تضفي على الأسطورة البدائية دلالات جديدة "[2]، وقد أضفى المناصرة على بطله الأسطوري إخيل سمات جديدة، فإذا كان في حقيقته التاريخية قد حقق االانتصار وقاوم الأعداء، فإنه في الشعر يجلب معه الثلج إلى الصحراء ويحول جفافها إلى خصب، كما أنه يتماهى في شخصية المسيح المصلوب، فهو البطل/ المسيح كما أنه البطل / المخلص.

ولا تخفى على القارئ الأبعاد الدلالية التي يبحث عنها الشاعر من رمزه الأسطوري، فهو يريد من إخيل أن يحمل راية تحرير الأرض، وأن يعيد المجد والعزة، فالذاكرة اليونانية بملاحمها وانتصارات شجعانها وفرسانها تقدم للشاعر الفلسطيني الأدوات الأسطورية المساعدة على معانقة أشواق الانتصار وأحلام التحرر، فهل يعود إخيل الفلسطيني إلى ميدان المعركة لكي يجنب أرضه الهزائم والانتكاسات؟ وهل تتحول الصحراء الجافة إلى أرض مثلجة؟ وبعد كل ذلك، هل يتحول موت الأرض إلى حياة؟

يفتح -من جديد- الشاعر أمام القارئ مساحات من التحدي والمقاومة، وإن كان أخيل قد خرج بحثا عن الثأر بعدما قتل صديقه" باتروكل" على يد

---

[1]- عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية، ص805.

[2]- دانيل هنري باجو: الأدب العام والمقارن،ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997،ص 145 .

انطرواديين، فإن شاعرنا يريد الخروج للإنسان الفلسطيني كي ينتقم لمن سلب الأرض واغتال الأهل وشوه الذاكرة وخرب المعالم الدينية، ولم يبق على ملامح الحياة، وتلك هي الصورة المترسخة في الشعر الفلسطيني، فقد" امتازت صورة الفلسطيني عامة بإيجابيتها: فردية كانت هذه الصورة أو جماعية، واقتصرت على الصمود والنضال والثورة واختفت صورة الفلسطيني المثقف المتخاذل والرجعي والعميل والخائن"[1]، ولعل ذلك ما يفسر استعانة المناصرة بإخيل، فرغم أن هذا البطل ابتعد عن ميدان المعركة إلا أن الصوت الوطني كان أكبر من الصوت الفردي، فخرج إلى الميدان وأبرز فروسيته، وهو شأن الفلسطيني في الشعر والواقع، فهو يذوب في الرمز الأسطوري ويعيد تجسيد تجربته.

4-**بروميثيوس**:

عندما يريد الشاعر أن يتحدث عن اغتيال العمق الفلسطيني لا يجد أكثر تعبيرا من أسطورة بروميثيوس، الذي سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان كي يستطيع أن يدخل في دروب المعرفة والحضارة،لكنه يعاقب بأن يقيد في أعلى جبل ويأتي النسر لينهش كبده، فتظل الكبد تتجدد والنسر يعاود نهشها، لتبقى معاناة بروميثيوس، وصار- هكذا- رمزا للمعرفة والتضحية.

إن قصته تصور محاولات الاغتيال والإقصاء التي تتعرض لها أصوات التغيير والتمرد والدفاع عن الإنسانية وكل القيم الجميلة.

يتوقف المناصرة عند الأبعاد الرمزية لأسطورة بروميثيوس، فينشدنا في قصيدة" توهج كنعنان":

---

[1]- واصف أبو شباب: شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر،دار العودة ،بيروت، 1981،ص207.

حنانيك يا حارة في الخليل
يقين على تلة سرقوا قلبه
جبل قرب قريتنا ويطل على البحر
و البحر الميت يفاصل زلزاله الأبدي
و أحجاره مرمر واسألوا البرلمان البعيد[1]

في هذا التوظيف يغيب اسم بروميثيوس وتحضر وظيفته في الأسطورة، وذلك لأن عودة الشاعر إلى الأسطورة كانت عودة ذكية، تأخذ عمقها وروحها ولا تكتفي بظاهرها وأسماء شخصياتها، فالمهم ليس هو الحضور الشكلي الظاهري للأسطورة، ولكن هو التماهي في جوهرها، والاستفادة من أبعادها الدلالية وإيحاءاتها الرمزية، ثم"إن قراءة الرمز الأسطوري لا تتحقق في مطابقته لمرجعه الأسطوري واستقلاله فحسب عنه، وإنما في قدرته كذلك على استيعاب هموم الذات الفردية ومقاصدها الأيديولوجية والفنية في خضم الواقع وحرائقه وتصدعاته"[2]، وهي الهموم والمقاصد التي استطاع بروميثيوس أن يختصرها حسب الشاعر عبر قلبه المسروق ومعاناته المتواصلة، كما هو قلب الفلسطيني ومعاناة وطنه، وهنا تتجاوز الشخصية الأسطورية بعدها المألوف، لتعانق أبعادا جديدة.

في مختلف التوظيفات الأدبية لقصة بروميثيوس يجد الباحث أن"الرواة والشعراء قد نسبوا لبروميثيوس سارق النار صفات عديدة وأعطوا الأسطورة معنى فلسفيا وأخلاقيا،و انتهى بهم الأمر إلى جعل بروميثيوس رمزا للفكر

[1]- عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية، ص552.

[2]- ليديا وعد الله: التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة، ص222.

الإنساني الذي يتطلع إلى الحرية والمعرفة"[1] ويواجه الألم المادي والمعنوي لأجل الإنسان/المعرفة، وإن المناصرة اكتفى بالتلميح إلى بعض عناصر الأسطورة اليونانية، فتح مجال التأويل للقارئ، ليجعله مساهما في تشكيل النص الشعري، بالبحث في مرجعه الأسطوري ومستوى التفاعل بين الشعر والأسطورة، لأن الرمز قد توغل في جسد النص، وغاب الاختلاف بين الذاكرة والراهن، وتحقق التماهي والتوحد.

إن الألم المادي الذي أصاب الشخصية الأسطورية هو الألم الذي يصيب الفلسطيني المقاوم،و إن مغامرة بروميثيوس بإعطائه النار للإنسان هي مغامرة متواصلة ومتجددة عند الإنسان، فالمثقف يعطي المعرفة ويمنح النار للإنسان والوطن، وقد يتعرض للحصر والإقصاء، بل قد يتعرض للتصفية الجسدية، وهكذا تنهش كبده، بما تحويه هذه الكبد من إيحاءات مادية ومعنوية، لكن رغم القهر السياسي والإقصاء الاجتماعي فإن الصوت الثقافي يبقى مرتفعا ويكون أكثر حرارة وحماسة عندما يرتفع في ظل الاحتلال، لأن هذا الصوت يعانق وهج الذاكرة وعطر الأرض، فيزداد غليان الكلمة والأرض،ف" طبيعي أن تكون الأرض في شعر فلسطين المقاوم أكثر غليانا من أي موضوعة يمكن أن تخطر على البال، ذلك أن تكوين الشخصية الفلسطينية المقاومة، لا يمكن أن يبتعد عن معنى وملامح وامتداد الأرض في كل جزء من التكوين الإنساني، فالأرض هي الفلسطيني والفلسطيني هو الأرض"[2].

---

[1]- سامية أسعد: الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر، مجلة عالم الفكر،تصدر عن وزارة الإعلام بدولة الكويت، المجلد16، العدد3،1985،ص119.

[2]- طلحت سقيرق: الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني،اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1993، ص25.

5- أوروبا:

ويوظف المناصرة الآلهة أوروبا عندما يحتاج إلى رمز أسطوري خاص بالمرأة والجمال، وهي آلهة بنت "أجنور" وقد أعجب بها "زوس" وتبدى لهل في هيئة طير وخطفها وطار بها إلى كريت، وهي عند المناصرة تتماهى مع "جفرا"، وتشكلان معا عالما شعريا خافقا بالمتعة المادية والروحية، تشتد في داخله إيقاعات الرقص والنشيد:

يشتد الرقص وأنشد في الجمع نشيدي
جفرا، يا جفرا، يا جفرا
هل تأذن أوروبا بالرقص الأخوي
هل تأذن أوروبا أن أفدغ نهديها
هل أدخل في حمى الأضواء
هل تأذن أوروبا بالرقص الدموي
دالية خضراء على السفح المهجور
الرقص حنين عظام الأحياء إلى كلمات الشهداء
الرقص حنين الأرض العطشى للماء[1]

ينشد الشاعر لجفرا ويريد الرقص مع أوروبا، وهو يجمع بين هويتين أو تاريخين،الأولى فلسطينية خالصة والثانية يونانية خالصة،إنه يعانق الجمال الأنثوي ويكتب له أنغام الوفاء وألحان الهوى،و مع تكرار اسم جفرا تتأكد قوة الشوق والحنين كما تتأكد قوة الارتباط بالأرض والهوية، حيث تتحول جفرا إلى رمز جديد لدى الشاعر، يخفق بذاكرة فلسطين وينبض بتجليات موروثها الشعبي، فلا تكتفي جفرا ببعدها الشعبي- اليومي وإنما تتخذ أبعادا أخرى أسطورية.

[1]- عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية، ص 385.

يريد الشاعر أن يرقص مع أوروبا، كي يتوحد في الجسد والروح، وكي يدخل في "حمى الأضواء"، أين تتداخل لغة اللون في لغة الجسد، وتتفاعل المشاعر – في لحظة الرقص – في المشاعر، و تكون أسطورة أوروبا أداة الشاعر لتجاوز الغنائية الذاتية والتعبير المباشر، وفي المقابل تحقيق الاقتراب من جفرا، فتصبح القراءة أمام جفرا/ أوروبا، بما تحمله الثانية من دلالات جمالية ودلالية ترتقي بالأولى وتعمق الإحساس الإنساني والوطني بالموروث والذاكرة،كل ذلك في شعر يجسد المشاعر والأفكار التي تأتينا عميقة موغلة في العمق التاريخي- الفكري بفضل الشخصية الأسطورية.

ويكشف لنا الشاعر غايته من الرمز الأسطوري بحثه عن شعرية الرقص عندما يرحل بنا في مشهد أسطوري احتفالي من مشاهد طقوس الاحتفال بالأرض الخصبة، ويشكل نصا خارقا، يلتقي فيه الشهيد بأهله، وتحن فيه الأرض إلى الماء، وفي ظل هذا التألق الشعري يكون النموذج الأسطوري هو نقطة الجمع بين التاريخي والراهني، وهو الذي يوجه القارئ ويوحي له بدلالات الذاكرة الخصبة والحاضر المشتاق لكل دلالات الجمال والحياة، من عطر الشهيد إلى صفاء الماء،فكان إشعاع الأسطورة اليونانية خافقا بإيحاءات متعددة متنوعة، تلتقي جميعها في رؤى الخصب والحياة وطموح انتصار الإنسان الفلسطيني على عدوه، وشوق الاستمتاع بالحرية والاستقلال.

تلك هي أفكار ومشاعر الإنسان مطلقا، بعيدا عن قيد المكان وضيق الزمان، وهو ما تستطيع الأسطورة تجسيده، لأن "الأسطورة تضع الإنسان بكليته في مواجهة العالم وبجميع ملكاته العقلية والحدسية، الشعورية واللاشعورية، وتستخدم كل المجازات الممكنة من أجل تقديم رؤية متكاملة لهذا العالم، ذات

طابع كلاني يعادل تجربة الإنسان الكلانية وغير المتجزئة معه"[1]، والآلهة اليونانية تمنح المناصرة عناصر التعبير عن تجربته في البحث عن الجمال والحياة، انطلاقا من التفاعل الشعري مع "أوروبا"، وقد جعل لها مقطعا بعنوان" أروبا ترقص" في قصيدة "غافلتك...وشربت كأس الخليل"، نقرأ منه :

تستيقظ أوروبا من جرار النبيذ الذي جرى الليلة الماضية

أكون مستعدا لسماع وقع صداك البعيد في رقصة السماح

صباح ماطر... سيدتي تصطلي بنار الموسيقى

أودع عذابي برقصة المتوحشات تحت ضوء الغابة

-أوروبا ترقص، تمطر، تشرب، ترقص

و أنا موحش خامد في مقعد من خشب الزان[2].

هذه الشخصية الأسطورية تتحرك في مدارات كثيرة، تلتقي في الحيوية الوجودية والحركية التي لا تنتهي، وهي عندما تحضر في النص الشعري تمنحه الحيوية التعبيرية والحركية الفكرية، كما تجعله مفتونا بكل طقس احتفالي أنثوي، ينتقل من متعة النبيذ ولذة الرقص، ويشتد الاحتفال عندما يمتزج الفعل الطبيعي / المطر بالفعل الإنساني/الموسيقى،ليعودا معا إلى البدء الكوني،حيث لا فرق بين عناصر الطبيعة والإنسان، بل إن الثاني متماه في الأول.

لقد حولت أوروبا شعر المناصرة إلى عالم أسطوري، وتجلت فيه من العنوان والتصوير، وشكلت له البناء الفني الشبيه بالبناء الأسطوري،كما جعلته متوحدا في الطبيعة، شأن كل حضور أسطوري في الشعر، فالأسطورة" تفتح

---

[1]- فراس السواح: الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجية والديانات المشرقية، دار علاء الدين: سوريا، 1997،ص20.

[2]- عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية، ص427-428.

خزانا لا ينضب معينه من وسائل الترميز، كما تفتح البوابات على مصاريعها بين الوعي واللاوعي ؛ في تجربة كلانية تحافظ على علائق الإنسان الطبيعية مع عالمه، وعلائقه الثقافية في الوقت ذاته"[1]، وهي العلائق التي يدركها الفلسطيني جيدا، ويضئ عبرها درب النضال وطريق المقاومة، دون شك في الحق الذي اغتصب أو خوف من المحتل الغاصب، كما أنها هي العلائق التي حافظ عليها المناصرة في حياته وشعره، وقدم شعرا يقرأ ذاكرة الأنا والآخر؛ ثم يحمل الرموز الأسطورية المختلفة ليدخل في متاهة الوجع ودهاليز النضال،و هي ذات الهوية الشعرية عند شعراء المقاومة الفلسطينية بعامة، حيث" اندمج شعراء الأرض المحتلة كليا مع الشعب وعاشوا بأعماقهم آلامه ومآسيه، وأفراحه وأعياده واكتسبوا من خلال معايشتهم هذه خبرة واسعة أغنت فنهم، وأمدته بشحنات جديدة من وجدان الشعب وذاتيته، وما يصبوا إليه من آمال وما يعتمل في أعماقه من آلام"[2]، ولا نعتقد بأنه يمكن أن نفرق بين هذا الشعب وأرضه، أو بين هذا الشعب وموروثه الثقافي بكل اختلافه الديني وعمقه الأسطوري.

6- **أورفيوس:**

إن أورفيوس إله يوناني، شاعر وموسيقي بارع، علمه أبولو العزف،فحرك بموسيقاه الآلهة والناس والحجارة،فكانت موسيقاه سحرية[3]، وقد عنون المناصرة إحدى قصائده ب "بأغنيتي أسحر العناقيد"، ويوجه القارئ مباشرة إلى الأسطورة اليونانية، حيث للأغنية سحرها وتأثيرها، يقول الشاعر/المغني:

---

[1]- فراس السواح : الأسطورة والمعنى، ص21.

[2]- واصف أبو شباب: شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص211.

[3]- انظر: طاهر بادنجكي: قاموس الخرافات والأساطير،ص51،و أوفيد: مسخ الكائنات، ت ثروت عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1971، ص277.

بأغنيتي أسحر العناقيد

تشعشع فوق الصواني

بأغنيتي أسحر الأزرق الوثني الكبير

بأغنيتي في سماها الجبال تطير

بأغنيتي قمت هدهدتها برذاذ الأغاني

أفاجئها بالتعاويذ حتى تراني[1]

عندما نقرأ هذا النموذج الشعري نستحضر الكثير من القصائد العربية التي تفاعلت مع الأساطير اليونانية واستفادت من المؤثرات الأجنبية، وهو ما دفع النقد إلى الاهتمام بهذا الجانب المتميز في التجربة الشعرية العربية المعاصرة[2]، مع اختلاف مستويات الشعراء في التوظيف، وقد تميز المناصرة بإقلاله من توظيف الأساطير اليونانية،لكن ما وظفه منها جاء في سياق التمثل والانصهار، وفي بنية شعرية لا تكتفي بإعادة سرد الأسطورة، وإنما تحورها وتنجز حولها الكثير من الخرق والانزياح، سواء في المستوى الشكلي أو الدلالي.

وانطلاقا من الإدراك الكبير لأسطورة أورفيوس تألق المناصرة بالمغني واخترق به كل الأغنيات وسحرها، كما شمل هذا السحر كل من الأبحاث والممارسات حول فكرة الطبيعة بين الأسطورة واللغة، وحول طريقة التوظيف الشعري لموضوعة الطبيعة/ الأسطورة.المخلوقات وكل العناصر الطبيعية، فلا حدود للأغنية والأسطورة، ولا مجال لحصرها وخنقها، لأنها الأغنية /السحر

---

[1]- عز الدين المناصرة : الأعمال الشعرية،ص839.

[2]- مثل كتاب يوسف حلاوي: المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت ،1997.

وليست الأغنية /الواقع؛بل هي الأغنية/التعاويذ التي تحمل معاني الغواية وكلمات الدهشة.

عبر ذلك الكون الشعري تكون الأغنية عنصرا أسطوريا يعانق كل البنيات النصية الشعرية، ليعود السؤال الوجودي العميق/ البعيد الذي يجمع الأسطورة بالشعر،و تعود معه الكثير من التجليات والجماليات التي ترتقي بالمعرفة والسرد نحو الخوارقية والعجائبية...وتنفتح أمام القارئ هذه العلاقة بين الطبيعة والأسطورة والشعر؛ليتحول النظر نحو تاريخ كبير من الدراسات والأبحاث حول فكرة الطبيعة بين الأسطورة واللغة[1] وحول طريقة التوظيف الشعري لموضوعة الطبيعة/ الأسطورة.

تنتقل دلالة"العناقيد" من بعدها المألوف إلى بعد أسطوري مدهش؛ فهي تحيل على الطبيعة كما تحيل على الكون، فأرفيوس اليوناني قد كان يحرك الآلهة والإنسان بموسيقاه؛ وأرفيوس/الشاعر يحرك الكون بأسره، من خلال الأغنية/ السحر، وهكذا تلتقي الأسطورة اليونانية بأسطورة الطقس، لأن الأخيرة تجمع الكلمة والفعل، و" لقد كانت الكلمات تترافق مع الكلمات المحكية، مع التراتيل، ومع التعويذ التي كانت فعاليتها السحرية جزءا جوهريا من الطقس"[2]، لذلك ختم المناصرة مقطعه الشعري بالإشارة اللغوية- الرؤيوية إلى التعاويذ في قوله" أفاجئها بالتعويذ حتى تراني".

---

[1]- انظر: علي الشوك : جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى، دمشق، 1999، ص109 وما بعدها.

[2]- صموئيل هنري هووك: منعطف المخيلة البشرية،بحث في الأساطير، ت صبحي حديدي، دار الحوار، سوريا، 2004،ص10.

إن هذه الأغنية التي تتكرر عبر كامل المقطع الشعري تتميز ببعدها الدلالي الذي يؤسس لمسافة دلالية تتحرك بين الثابت والمتحول، عندما تحيل القراءة على أسطورة أورفيوس، كما أن حضور الأسطورة في الشعر لا يلغي أبدا التماثل/ التشويه بين العنصر الأسطوري والعنصر الأدبي، بخاصة عندما يقابل الشاعر بين سحرية الأغنية وطقوسية التعاويذ، وكأنه يحيلنا في العمق إلى حوارية الأسطورة اليونانية والأساطير الطقوسية الشرقية، كما فعل غيره من الشعراء الفلسطينيين، لأن" القصيدة الفلسطينية بالإضافة إلى تأثرها بالأسطورة العربية واستغلالها، قد تأثرت أيضا بالأسطورة غير العربية، وأدمجتها ضمن مراجعها، فاستغلال الشاعر للمادة الأسطورية لم يقف عند جانبها التراثي العربي، بل تعدى ذلك إلى الجوانب الأسطورية في التراث العالمي"[1].

الخاتمة:

يعتمد المناصرة تقنية الانزياح في تعامله مع الأساطير، ولا يكتفي بالتوظيف الأسطوري الذي يتوقف على توظيف الأسماء أو الصفات فقط.

تنطلق الحداثة الشعرية عنده من فهم عميق للموروث(الأنا- الآخر)، مع تملكه وإدراك جوانبه المختلفة،ثم إلباسه الخصوصيات الجديدة، التي تنفتح على أسئلة الراهن دون أن تسقط في التقرير والمباشرة، وهو في توظيفه للأسطورة اليونانية جعلها متأرجحة بين الحضور الشامل في القصيدة وتناول كل جزئياتها(كما فعل مع إيكار) وبين الحضور الجزئي في بعض القصائد(كما فعل مع إخيل)، مع ترك مجال التأويل مفتوحا للقارئ،كي ينجز الدلالات الخفية للتوظيف الأسطوري.

---

[1]- سعدي أبو شاور: تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 2003، ص49.

إن المناصرة لا ينقل حرفي الأسطورة،و إنما ينقل روحها وجوهرها، ثم ينجز تغييره وتحويره،أو لنقل بأنه ينجز لعبه الفني مع الأسطورة، وهو ما يجب أن يدركه الشعر العربي المعاصر أثناء توظيفه للموروث بعامة والأساطير بخاصة، فيستفيد من البعد السحري للغة الأسطورية، ثم يشق طريقه الإبداعي الخاص به" بعد أن أتق عن الأسطورة ذلك التناوب بين التصريح والتلميح،بين الدلالة والإشارة، بين المقولة والشطحة، وبعد أن أتقن منها أيضا كيف يمكن للغة السحرية أن تقول دون أن تقول"[1].

[1]- فراس السواح: الأسطورة والمعنى،ص22.